

بين الخرائب والأطلال

« لكيلا نسى! . . . »

في ميدان كرسستوف كولومب بميناء برشلونة ، وعلى بعد بضعة أمتار من ساحل البحر الأبيض ، ترى بناء مهتماً من الطراز القوطي العتيق ، تكاد العين تنكر مكانه في هذا الميدان الجميل ، لولا ما يلوح عليه من آثار مجد قديم . وليست ضخامة البناء هي التي تروعك ، وإنما يروعك منه تفرده وجلاله ، على رغم ما نال منه البلى وأخذ الزمان . . .

قبل لنا : هنا المتحف البحري Museo Maritimo . وفتح أمامنا بابه الضخم العتيق ، فدخلنا نشق طريقنا بين خرائب وأطلال قلستها أسبانيا الجديدة فتركتها كما هي : بترابها وأنقاضها وأعشابها ، بقية من دار الصناعات القديمة Atarazanas التي كانت هناك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر . ثم ما لبثنا أن رأينا وسط هذه الخرائب ، صالات من أفخم صالات العرض وأحدثها طرازاً وأجملها تنسيقاً ، تقدم لنا نماذج ولوحات وصوراً ، للسفن الأسبانية الأولى وبناتها الخالدين ، وترينا آثارهم التي تركوها ، وتتلو علينا أناشيدهم وأغانيتهم .

يحسب الزائر الغريب حين يرى هذا المتحف الحديث بين الخرائب والأطلال في المبنى العتيق ، أنها صورة واحدة ، تألفت هكذا بمحض المصادفة ، أو لاعتبار مادي من الانتفاع بالمباني القديمة توفيراً واقتصاداً ، لكنه لا يلبث غير بعيد حتى يدرك أن ما حسبه قد قام بمحض المصادفة أو لاعتبار مادي قريب ، لم يكن سوى اتجاه مقصود مسدد ، لضم الجديد إلى القديم ، وبناء الحاضر على الماضي .

وذلك هو طابع الحضارة الأسبانية اليوم .

ترى مثل هذا الطابع المتميز في متحف برشلونة ، إذ تسلك إليها طريقاً قديماً ضيقاً ، تقوم على يمينه الكاتدرائية العتيقة التي تبلغ من العمر ستة قرون ، ويقوم على يساره قصر محكمة التفتيش Palais de l'Inquisition وإلى جانبه متحف المخطوطات الشهير Archive de la Couronne d'Aragon الذى يعد ثانياً متحف من نوعه فى العالم ، فليس يفوقه سوى متحف الفاتيكان . وينتهى بك هذا الطريق الأثرى الذى تحف به المباني الأثرية ، إلى مبنى جميل حديث الطراز ، تحسبه مسكناً لوجيه من سراة القوم . فى هذا المبنى الجديد ، أطلال مدينة برشلونة القديمة .

تدخل من بابه الأول ، فتستقبلك صالة حديثة للعرض ، بها كل المؤلفات التاريخية عن مدينة برشلونة ، وفيها نماذج من القطع الأثرية المتخلفة من عهدها الأولى . ويمضى بك سرداب طويل منحدر إلى ما تحت البناء ، فاذا أمامك مدينة برشلونة بمقابرها وأطلالها ومعالمها ، فى عهدها الرومانى الأول (٢ ق.م : ٣ م) . وإلى جانبها مدينة برشلونة فى عهدها الثانى إلى قبيل العصور الوسطى . هناك ترى الأحجار المتخلفة من خرائب المباني التى هدمتها غارات البربر . وترى الحمام الرومانى القديم ، كما ترى المواقد والأوانى ، والمناسج والرحى . وقد أحيطت هذه المنطقة الأثرية بجدر واقية متينة ، وأقيمت بينها أعمدة من الفولاذ والأسمنت المسلح ، ثم شيد فوقها ذلك المبنى الحديث ، حيث سجلات المتحف ومكاتب موظفيه .

ودع مدينة برشلونة بمتاحفها وخرائبها ، وامض إلى لريدا ، وسرقسطة ، ومدريد ، ثم مثل هذا الطابع سمة حضارتها . وهو يتجلى فى أروع صور ، فى دير الأسكوريال ثامن عجائب الدنيا . أقيم هذا البناء الشامخ الفخم على أنقاض كنيسة صغيرة للقديس لورنسو San Lorenzo راعى الملوك الأسبان ، وكانت الكنيسة تهدمت فى غارة عدائية ، فأقام الملك فيليب الثانى هذا الأثر الخالد فى القرن السادس عشر تحية وتروضية ، وقرباناً وذكرى . وشيد فيه جناحاً ملكياً ما يزال حتى اليوم محتفظاً بهائه القديم ، وأثاثه الأول ، ولوحاته الرائعة التى تغطى جدرانها جميعاً . بل ما يزال حتى اليوم مبقياً على الفراش الذى لفظ فيه الملك فيليب آخر أنفاسه .

ويرى الأسبان أن الاسكوريال ، يمثل الروح الاسبانية في بساطتها وقوتها ، واستقامتها وخلودها واعتزازها بقديمتها . وهم لذلك يحرصون على أن يعضوا بضيوفهم إليه . وقد استقبلوا فيه قبيل رحلتنا ، السنيورا إيفا بيرون عقيلة رئيس جمهورية الأرجنتين .

ثم دع الاسكوريال بعظمته وبهائه ، واقصد إلى طليطلة على بعد سبعين ميلا من العاصمة ، وهناك التمس قصرها التاريخي الخالد Alcazar de Toledo على الربوة العالية التي تلتف حولها المدينة وتحف بها في تقديس وإعزاز . قف على باب القصر المهدم برهة ، وطأطئ الرأس مهابة وإجلالا ، ثم اتبع الدليل وهو ينتقل بك بين الأطلال ، حيث أقامت أسبانيا أجد وأحدث متاحفها القومية . شيده شارلكان في عهده الزاهر ، ثم صار إلى أكاديمية خربية حتى قامت الحزب الأهلية المعروفة ، فرأى فيه الأسبان حصناً منيعاً ، لاذ به جمع من البيوتات الكبيرة ، وأووا إليه بأرواحهم ، صفر الأيدي من الزاد والعتاد . . . وأحاط الأعداء الحمر بالحصن محاصرين ، ولبثوا مقيمين على الحصار اثنتين وسبعين يوماً ، وأهل الحصن ثابتون صابرون ، يحتملون من مرارة الهجوم وعنف الحصار ، مثل الذى يكابدون من قسوة الجوع وحرقة الظمأ . . .

ثم حانت لحظة حاسمة : من تلك اللحظات التي يقف التاريخ فيها مترقباً ينتظر كلمة واحدة ليوجه سير الأحداث ، ويقرر مصاير الشعوب . ظفر الأعداء بفرانسوا ، ابن الجنرال موسكاردى رأس المدافعين عن الحصن . وكان فرانسوا شابا يافعاً ، مات أخ له في الحرب من قبل .

والتمس قائد الأعداء خصمه في « التليفون » منذراً إياه بقتل ولده إن لم يسلم الحصن في عشر دقائق . ثم بداله في تلك اللحظة أن يدع فرانسوا يخاطب أباه ، تأييداً لما ادعاه من ظفروه به . وإثارة لعاطفة الأبوة في القائد الشيخ . وأصغى الزمن إلى الشاب وهو يقول لأبيه :

— أموت يا أبى ، وتعيش أسبانيا . وداعاً .

وهناك في هذا القصر المهدم ، ترى صورة الشاب الشهيد في قاعة القائد ، وتقرأ الحديث التاريخي مسجلا في لوحة علقت إلى جانب « التليفون » الذى صار أثراً قومياً . فاذا تركت القاعة ، ألقيت في صدر المر أمامها ، تمثالاً

لموسكاردي القائد ، شامخ الرأس ، بادى العزم ، مهيب السمات . وينتهى بك
الممر إلى « غرفة الشهداء » حيث ينتطرك مشهد رائع رهيب لا ينسى .

« لا تبك على هؤلاء الذين ماتوا من أجل الوطن . »

هذا هو نشيد الفداء ، يلقاك حين تلج الباب ، منقوشاً على الصخر ،

يتوج هامات الشهداء . . .

ثم هذه هي أسماؤهم ، محفورة في لوحات رخامية مترابطة ، جنوداً وضباطاً
قد جمعهم الجهاد القومى المشترك ، وسوت بينهم الميتة المحيدة التى ختمت
حياتهم جميعاً فى ميدان واحد .

وتطل هذه اللوحات على قبر يتوسط القاعة : قبر بسيط خال ، أعد

لموسكاردي البطل ، بين صفوف جنوده الخالدين .

ويقودك الدليل بين خرائب القصر ليريك قاعة أخرى تحت الأرض . إنها

« غرفة الحياة » حيث ترى كل ما أبقي الحصار الطويل الناهك لأهل القصر من

ذخائر ومؤن ، تركتها أسبانيا فى مكانها ، تتلو على الأجيال الخالفة ، آية

الشجاعة ، ونشيد البطولة ، وقصة الفداء . . .

هنا حفنة من القمح لا تزن رطلا ، وكسرات من خبز قديد لا تشبع طفلاً ،

وقارورتان من اليودوفورم والكحول ، وثلاث علب صغيرة فيها بقية ضئيلة

من المساحيق والعقاقير . . .

وهناك . . . واجهة زجاجية ، تحفظ ما كان فى القصر يوم أنقذ ، من

أسلحة وذخائر . وأخرى بها الكوز الصفيح الذى كانوا يشربون به ، والأوعية

البسيطة التى اخترعتها لهم الحاجة وصنعها الاضطراب .

أما صدر القاعة ففيه الفرن الذى ألفوه مما لديهم من متاع ، و «الموتوسيكل»

الذى حوروه إلى طاحونة للقمح وآلة لرفع الماء !

بهذا الأسلوب تمجد أسبانيا شهداءها ، وتقديس ذكرياتها ، وتحى أسسها .

إنها لم ترفع أنقاض القصر القديم ولم تنسف خرابيه ، وإنما اعترت بكل

ما بقى منه ، وأقامت على أطلاله متحفها القومى الحديث ، ومدرتها الوطنية

الأولى . . .

وذلك هو أسلوبها المختار : تراه هنا فى طليطلة ، كما رأيته هناك فى برشلونة

وسرقسطة والاسكوريال ، وكما ستراه بعد فى غرناطة ، حيث أقيم معهد الدراسات

لعربية في قصر قديم لأحد أمراء العرب بمحلة البيازين *Albaicin* ، وكما سوف نراه حيثما توجهت وأنى ذهبت .

إنه طابع الحضارة الأسبانية : اعتزاز مؤثر بالتراث القديم ، وإصرار عجيب على الجمع بين الحضارتين الموروثة والمكتسبة ، وقدرة نادرة على مزجها معاً ، وصوغها صياغة قومية في مهارة. تدعو إلى التقدير .

ولعلك لا تخطي هذا الأسلوب هناك في اللغة وفي الفن ، كما لم تخطئه في المعالم الأخرى للحضارة الأسبانية . فالطابع المتميز للفن الأسباني ، هو تلك الروح الشرقية التي تأتلف بالأسلوب الغربي في التعبير والأداء . وقد جمع هذا الفن عناصر واضحة من الشرق والغرب ، من القديم والحديد ، من الاسلام والمسيحية ، كما احتفظت اللغة الأسبانية بكثير من مفردات العربية وأساليبها في البناء . ولقد دهشت لهذا أول ما رأيته ؛ إذ كنت أحسب أن الأسبان يبرءون من الشرق والغرب ، ويحاربون كل ما هو شرقي عربي ، وعذرتهم في هذا ، فما كنا نفعل سواه لو أنا مكانهم . لكن الغريب أنهم لم يعودوا يحاولون أن يقطعوا من تاريخهم هذه القرون الثمانية التي عاشها العرب هناك سادة وملوكاً ، أو يفصلوا من دمائهم العنصر الغربي الذي سيطر بالدم الأسباني الأول ، واستحال بعد ذلك أن يتزايل .

هم لا يحاولون ذلك ، أو لعلهم قد حاولوه فلم يستطيعوه ؛ فقد دخل العرب في تاريخهم وفي دمائهم ، وتركوا أثرهم الخالد على أرضهم ، وخلفوا طابعهم الخاص في فنهم وحضارتهم . والأسبان يعترفون بذلك فيقررون : « أن الغزو العربي قد ترك في الاقليم أعمق الآثار . . . ولقد كانت هناك فترات اتصل فيها المسلمون بالمسيحيين وعاشوا في صداقة وألفة ، فامتزجت العناصر العربية بالأسبانية امتزاجاً ترك أثره الواضح في الفن والعادات المسيحية ، بحيث أصبح اسم (أسباني) . يطلق على المزارع المسلم في عهد خليفة قرطبة ، كما يطلق على الفارس المسيحي من قسطنطية أو ليون . (١) »

كما يقررون في مكان آخر « أن أهم خصائص الطابع الأسباني ، هو ذلك الجو الشرقي الذي يسوده . فروح الشرق قد تعمقت في صميم كل ما هو أسباني ،

والاختلاط المستمر بالعرب قرونًا ، ترك على أرض أسبانيا ، كما ترك في روحها ، آثاره الواضحة الصريحة ؛ وهذا هو ما يميز أسبانيا ويجعلها ذات طابع فريد بين بقية الأمم الأوروبية الأخرى .

« One of the most typical peculiarities of Spain is its eastern atmosphere. The spirit of the East has soaked down into the inner essence of that which is Spain. A continuous association of centuries with Arabs has left in the land as in the soul of Spain visible traces. It is this what makes Spain unique among the rest of European nations. » (١)

وترى هذا الطابع الفريد — حيث العنصران حاضران ماثلان — في الكنائس ، مثل كنيسة سان ميغويل في ليون ، وسانت ماريا في سانتندر ، كما تلمس الأيحاء الشرقى واضحاً في أكثر الكنائس الريفية . ولعل دير Guadalupe أجمل مثال لذلك الطراز الجميل الذي يعشقه الأسبان . كذلك ترى مثل هذا الطابع في الحصون مثل ترويل ، وسانتا كلارا ، وكوكا ؛ وفي قصر اشبيلية Alcazar de Séville بوجه خاص .

وإذا تركت المباني ، ألفت الطابع نفسه سائداً في الصناعات الفنية الدقيقة ، حيث يعترف الأسبان بالآثر العربي القوي فيها ، وبخاصة في العاج والنسيج والأسلحة والجلود ، والأسقف الخشبية .

والظاهرة العامة التي تلفت السائح الأجنبي اليوم اعتراف الأسبان بكل ما هو قديم ، لا يحول دون ذلك حائل من سياسة أو دين . فأسبانيا الجمهورية التي أنزلت الفونس الثالث عشر عن عرشه وأخرجته من وطنه ، احتفظت بتابوت فارغ بين قبور ملوك أسبانيا ، لتنتقل إليه رفات ملكها الذي تركته يموت في النفي غربياً ، كما احتفظت لأمه بقبرها مع الملكات الأمهات في المقبرة الملكية بالاسكوريال .

وأسبانيا المسيحية الكاثولوكية المتعصبة التي حاربت الاسلام في إفريقية وأوربا ، لم تستطع أن تتجاهل الاعتراف بعظمة الخلفاء المسلمين الذين حكموها ، بل وضعتهم في أماكنهم بين أعلام الأسبان . وهذا هو الكاتب

الأسباني المعاصر^(١) ماريانو توماس Mariano Tomàs يؤلف كتاباً عن الخليفة عبد الرحمن الثالث ، حلقة في السلسلة التي يكتبها عن مشهورى الأسبان *Espanolas Famoses* .

وفى الاسكوريال ، حيث الدير الأسباني الأول ، وحيث الكاثوليكية المتعصبة تسود الجو وتسيطر على المكان ، ترى فى مكتبته الشهيرة هناك ، كنوز التراث العربى من المخطوطات النادرة ، قد أبقي عليها الأسبان واحتفظوا بها فى حرص بالغ . هناك ترى مصحفنا الكريم فى وسط بهو المعرض الفخم ، مع كتابهم المقدس جنباً إلى جنب ، حين كان ينتظر من أمثال هؤلاء المتعصبين الذين أقاموا دولتهم المسيحية على أنقاض الدولة الاسلامية إثر صراع طويل دام ، أن يحرقوا كل أثر للعرب ، وأن يمزقوا قرآنهم كما فعلوا بمن ظفروا بهم من المسلمين . ولكن الأسبان الذين دفعهم الحقد والتعصب إلى مطاردة المسلمين وإذآقتهم فنون التعذيب وألوان النكال ، قد أدركهم الرشد فأبقوا على آثار العرب وكتبهم ، وتركوها تأخذ مكانها بين تراثهم الغالى . وهكذا ترى فى أسبانيا الحديثة قصر محكمة التفتيش قائماً فى مكانه إلى جانب كاتدرائية برشلونة ، كما ترى قصر الحمراء فى مكانه بغرناطة ، شاهداً على الحضارة العربية الزاهرة ، وصورة من المجد الاسلامى الأندلسى ، وكما ترى نفائس المخطوطات العربية فى مكتبة دير الاسكوريال . وفى القسم العربى بالمكتبة الأهلية فى مدريد .

أكان الأمر عليهم سهلاً هيناً ؟ إن آثار العرب هناك تجيب عن هذا السؤال بما لا تزال تحمل من ندوب الصراع الرهيب الذى عاناه القوم ، مترددين بين محو كل ما هو عربى إسلامى ، وبين الابقاء على ما صار قطعة من حياتهم وجزءاً من ماضيهم . فأنت تلمح مفاعل بهم التعصب الحاقق فى تلك الصلبان التى أضافوها إلى مثل أبواب مسجد قرطبة الشهير ، وفى المآذن التى جعلوها أبراجاً للنواقيس ، وفى المساجد التى حولوها إلى كنائس

(١) طبع هذا الكتاب عام ١٩٤٧ ، وماريانو كاتب أديب شاعر ، ظهر له ديوانان ، وخمس مسرحيات ، وسبع عشرة قصة ، وست تراجم لاعلام الأسبان .

أو أعادوها إليها كما يقولون ، وفي الصور المسيحية التي ملأوا بها جدران
المضلي في طليطلة ، وفي . . . وفي . . . وفي . . .

ولقد كنا نشهد هذا فتمسك عبراتنا تجملا ومدارة ، ونطوى جوانحنا
على الهمة ، ونتجاوزنا عوالم شتى تنتقل فيها بين هذه العواطف المجهدة ، وبين
عواطف أخرى أرحب مدى وأوسع مجالاً . . . هنالك حيث كنا نأمل
للإنسانية حظاً من سعة الأفق يقينا مثل هذا الصراع الدامي المجهد ،
ويريحها من ذلك العناء في المحو والاثبات ، ويجعلها تنتفع بتعاون الأجيال
المتتابعة في التعمير والبناء ، ويوفى بها على شئ من الساحة يعفيها من مرارة
الحقد وإجهاد التعصب ، ويحمي لها تراثها على مر الأجيال .

تجادبتنا هذه العوالم المتباينة ونحن نطوف بمشاهد الحضارة الإسلامية في
أسبانيا ، حيث كانت أطراف الملوك والأمراء من العرب تحيط بنا ، ورؤى
مجدهم الذاهب تترامى لنا ، وأشباح ماضيهم تتبعنا وتأخذ علينا كل سبيل .

أى مجد قد راح . . .

وأى تاريخ قد طوى . . .

وأى عز قد اندثر !

ولكن . . . أحقا قد ضاع كل هذا واندرثر؟

أما في حساب هذه الأمة أو تلك فنعم ، وأما في حساب الإنسانية فهو باق
باق ، خالد خالد ، شخصت معاله في بناء الحضارة فلا تخفى . . . وسجلت
آثاره في تقدم البشرية فلا يمحي . . .

ولئن كان الأسباب قد أبقوا عليه بالأسس فخرّاً بما ظفروا ، ومباهاة
بما نالوا ، وذكرى لما كان ، فانه اليوم يقوم بما للإنسانية من حق في حياة
ماضيها ، وبما لها من أمل في رقي غدها . . .

بهذا يفوم هذا الماضي في حراسة الإنسانية ، تتكى عليه اليوم أمة تقوم
بتصويبها في الحضارة مهما يكن تعصبها الفردي أو شعورها الذاتي . . .
فله ما أسدى أصحاب ذلك الماضي المجيد للإنسانية العليا ، والمدنية

السامية .